فى ملاقاه خصومه والنيل منهم ، ومواجهة الضربات وتوجيهها ، وتصوير الصعنات التي ربما نالت من جسده ، ولكنها ظلت عاجرة عن النيل من نفسه فى أى من المواقف القتالية الدامية .

وتتبلور لديه مقومات هذه اللوحة فى إطار الذكريات الحربية وغير الحربية فى حوالي خمسة أبيات (٢٧ - ٣١) ، بعدها يستطرد ثانية عَوْداً إلى الرفيقين ، يستعين بهما علي عسير أمره ، إذ يطلب منهما أن ينعياه إلى أهله ، وأن يترصدا الأهل فى أشد أماكن الزحام لديهم (بئر الشبيك) لينقلا إليهم خبر الفقد الذى أحاط به ثم أصابه ، وعندئذ يستثير الرفاق لمزيد من الإشفاق عليه ، وهو يتصور نقل هذا الإشفاق إلى كل من يعرفه ، وتزداد لديه هو نفسه حدة ذلك الإشفاق على الذات ، حين يتحول إلى جثة فى قفر من الأرض ، حيث لا حياة ولارفاق ، إلا رياح تملأ الأجواء صخبا وغبارا ، وتزيد قبره طمسا واختفاءً مع توالي الأيام ومرور الليالى ، وهو يطلب إليهما ضرورة إبلاغ الخبر لكل من يعرفه بدءا من وحش الصحراء الذي كان له رفيقا منذ صعلكته ، وانتهاء بربات الخدور من النساء ، لعلهن ينتحبن عليه ، ويزداد بكاؤهن من جراء فراقه ، ولا ينسى أن يعزي نفسه بأن يترك لأهله ميراثاً يكفى لأن يذكروه بخير - على الأقل -فهم لن ينصرفوا بسهولة إلى نسيانه ، ولا تجاهل ميراث بطولاته أو نسبان ذكرياتهم معه .

ولديه يزداد هذا العزاء فى أن يجد من بعده أهلا له يبكونه ويرثونه ، بعد أن سجل حسرته مراراً إزاء مواجهة لحظة الموت حين تأتيه بعيدا عنهم ، فهناك مظنة ألا يجد له باكيا إلا سيفه ورمحه . وهنا يعتمد على تصوير مفارقات نفسية عنيفة تبلورها لحظة الاغتراب الكامل مع مواجهة المنية ، وفى إبلاغ الخبر بعد وفاته ، لتزداد عليه الرحمات وتلهج الألسنة له بالدعاء .

وعلى عادته فى الاستطراد الذى يعد أساساً فنيا فى بنية هذه القصيدة يعود الشاعر إلى حديث آخر محوره الموت ، وأثره فى ميراث الأحياء (٣٥ - ٣٨) ، فقد ترك للأهل ميراثا يصيبونه من بعده ، وهم يصطرعون مع أنفسهم ، ولو كان الأمر بأيديهم ما اختاروا أبدا فراقه الذى أزهق نفسه كلّما ضاقت به صدورهم ، ولم يبق لهم إلا جل ماله الذى جمعه من صعلكته أو من جهاده فى سلك الفاتحين .